

رياح الشمال، ثم إنه عاد يبحث عن أبيه من أجل نيل تبريكاته، غير أنه أصيب بشكل مفاجيء بمرض عضال أدى إلى وفاته في ٣٠ - أيار، وكان ذلك في مدينة أذنة، وقد فتحت بطنه، وأخرج ما في جوفه، ثم حمل إلى دير القديس أكثير، حيث أودع هناك لبعض الوقت، وبعد هذا جرى نقله إلى ملك بايروان، حيث دفن هناك.

واعتباراً من هذا اليوم استبد الحزن بكوستاندين والد الملك، وبالمملك هيتوم وآل بيته وحاشيته.

٦٢ - حملة ساروم التركماني

وقام في العام ذاته تركماني اسمه ساروم Sarum ، بحشد عدد كبير من الرجال، وزحف ضد قلعة كراكا Krakka ، وبث الرعب بين صفوف الناس ثم أخذ معه أسرى وغنائم وأسلاب، وانسحب دون إحداث أضرار كبيرة، وبعد مضي بعض الوقت توفي هذا التركماني.

٦٣ - قيام هيتوم الأول بالتحكيم في طرابلس

في العام ٧٠٨ (١٦ كانون الثاني ١٢٥٩ - ١٥ كانون الثاني ١٢٦٠) ذهب الملك هيتوم على متن سفينة إلى طرابلس، ومعه مائتي رجل، وذلك من أجل معاضدة صهره الذي كان أميراً لأنطاكية، وكونتاً لطرابلس، وذلك إثر تفجر خلاف بين هذا الأمير، وتكتل قوي نشأ بين صفوف حاشيته، وقد تمكن الملك هيتوم من فض الخلاف، وعقد اتفاقاً نظم العلاقة بين الطرفين، ثم عاد إلى بلاده.

وعقد في العام ذاته في أيام عيد الحصاد، اجتماع كبير في مدينة طرسوس، جرى خلاله تنصيب أخو الملك المعروف باسم بلدوين أسقفاً، وبعد مضي عدة أيام نال لقب تير - يوهانس، وحدث في اليوم ذاته أن أصبح طوروس ابن الملك فارساً.

٦٤ — هزيمة أتراك الروم في منداس

وكان قد ظهر في هذه الأحداث أمير من أصل إغريقي اسمه أوشين، قام بغزو المواقع الحصينة في منداس واحتلها، واستنفر في هذه الأثناء ركن الدين سلطان الروم قواته، وحشد جيشاً كبيراً، أوكل قيادته إلى رجال كانوا موضع ثقته، وأرسله إلى المنطقة الحصينة في منداس لمحاصرتها، وقد تمكن من ذلك، غير أن رجلاً تمكن من مغادرة المنطقة المحاصرة، وتوجه إلى الملك هيتوم، وأبلغه أن عدداً كبيراً من المسيحيين قد جرى حصارهم في داخل الأماكن الحصينة، وأبلغه بأخبار حملة السلطان ضدهم، وبناء عليه استدعى الملك قواته، وزحف على رأسها إلى المنطقة الحصينة المحاصرة، ومعه الصليب المقدس، وزحف الأرمن وتقدموا سرّاً في غسق الليل بمشاعل تضيء دربهم، لكن دون أن يلفتوا الانتباه، وعندما وصلوا على مقربة من كاوستار Kawsitar ، ساروا فوق الثلوج، وحققوا بذلك معجزة كبيرة، وفعلوا ذلك وكأنهم يسيرون في شهر تموز، وكان المدعو أبلهسنانك Aplhasnanc ، يسير في المقدمة، وقد تمكن من استغلال ثغرة وجدها بين صفوف الأعداء، فمرّ بقواته منها، وقام من هناك بهجوم مباغت، وبذلك أرغم هؤلاء الأعداء الأوغاد على الفرار حتى إيرغلي Eregli ، حيث كان هناك معسكر للمؤمنين، وهناك بدأوا في إعادة تنظيم صفوفهم، وخاض إثر ذلك الطرفان معركة مجابهة قاسية، وقد تمكن الأرمن من ترجيح ميزان القوى ميدانياً لصالحهم، غير أن الأعداء تمكنوا من محاصرة بهرام دي هاموس Hamus ، وكان مقاتلاً معروفاً، وشددوا الحصار عليه من جميع الجهات بالرميات المكثفة من قسيهم، إنما دون التقدم نحوه، وشوهد في هذه الأثناء أخو الملك وهو يقوم بفتح ثغرة بين صفوفهم، والولوج إلى بهرام المحاصر، ونجدته وحمايته حتى وصل إلى مخيم الأرمن، وبما أن الصليب المقدس كان مصدر قوة روحية ومعنوية، فقد ساعد على تحقيق

النصر على الأعداء ودفعهم إلى الفرار، وكان الأرمن قد قتلوا أعداد كبيرة، في حين عانى الذين بقيوا أحياء من الخيبة والعار، ومنهم من لجأ إلى قونية أي إلى حاضرة سلطانهم، ومن جانبه عاد السلطان مهزوماً إلى قونية، في حين عاد الملك هيتوم منتصراً ومطمئناً إلى كليكية، وكان مثقلاً بالغنائم الكثيرة، ولم يقتصر الأمر على هذا فقط، بل حقق هدفه الأساسي، وهو تحرير المسيحيين الذين كانوا محتشدين داخل الحصن، وإعادة الطمأنينة إليهم، وقد أمر بإدخالهم إلى الأراضي التي كان يسيطر عليها.

٦٥ — الأرمن والمغول يحتلون حلب ودمشق

في سنة ٧٠٩ (١٦ كانون الثاني ١٢٦٠ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦١) زحف هولاكو خان على رأس قواته في فصل الربيع، وكان كلما مر بحصن عاد إلى المسلمين استولى عليه صلحاً أو عنوة، حتى وصل إلى مشارف حلب، فحاصرها من جميع الجهات، ثم بعث إلى الملك هيتوم يطلب منه القدوم عليه، ووصل هذا الملك إليه مع جيشه، أي وصل إلى حيث كان الخان مرابطاً، وقد استقبله هولاكو بحفاوة كبيرة، وكان الخان المنتصر قد قرر الضغط على حلب بمختلف الوسائل المعززة للحصار، واستطاع خلال سبعة أيام من القتال المتواصل فتح ثغرة ضيقة في الأسوار، وذلك على الرغم من اتساع هذه الأسوار وعمق الخنادق، وقد تمكن بواسطة العمل الجماعي من حفر نفق تحت الأسوار أوصله إلى القلعة، وبهذه الوسيلة اندفعت قوات هولاكو إلى الداخل، واقترب المغول بسيوفهم مجازر رهية ضد المسلمين، وقتلوهم دون رحمة أو شفقة، وما من أحد يمكنه أن يصف المجازر، بحكم فظاعتها، واتساع المساحة التي انتشرت فوقها الجثث.

وبعد انتهاء المجازر حملت قوات هولاكو الغنائم، وجميع ما وقع في أيدي أفرادها من أسلاب ومنهوبات، ثم زحفت هذه القوات نحو

دمشق، وكان هولاکو قد أخضع جميع المدن والقلاع والحصون ووضعها تحت تصرفه المباشر، وذلك امتداداً من حلب حتى القدس، وقد عين على كل مقاطعة حاكماً يرجع إليه، ثم أسند الأمور كلها إلى رجل اسمه كتبغا، وقرر بعد ذلك هولاکو خان العودة إلى الشرق، أي إلى حيث أتى، واصطحب ابنه أبغا معه، وقد اصطحب هذا جيشه معه.

٦٦ — انتصار المصريين في عين جالوت

قرر كتبغا، المسؤول الأول عن السلطة، عدم الالتزام بأوامر هولاکو، الذي كان قد فرض عليه البقاء في المكان نفسه، وهكذا قام كتبغا بحشد قواته، والقوات الكليكية، فهو كان قد طلب من الملك هيتوم الالتحاق به، وإمداده، فجاء على رأس خمسمائة رجل، ولدى استكمال حشد القوات توجه كتبغا يريد مصر لاحتلالها، وحصل جواسيس السلطة المصرية على أخبار الزحف المغولي، فبادروا إلى إيصالها إلى المصريين المعنيين بالأمر، وقامت قوات الملك بالاستعداد وتعبئة الصفوف على بعد أربعة أيام من مواقع العدو في مكان اسمه بيت (زرعين) إلى الغرب من عين جالوت، وخلال نصف يوم استعد الجيشان وشرعا بالاقتراب من بعضهما بعضاً، وفي مطلع الفجر التحم الجيشان في معركة ضارية، وجرى القتال جبهوياً، جيش مقابل جيش آخر، وكان في غاية العنف، ونظراً لقسوة القتال، ورداءة المناخ وارتفاع الحرارة وشدتها، ولأن الارهاق قد أصاب خيول المغول قرر شعب الرماة الانسحاب ثم الفرار، وقتل المصريون في المعركة القائد المغولي كتبغا، وحملوا معهم إلى مصر ما كان بحوزته وذلك بالإضافة إلى زوجته وأطفاله، أما الذين ظلوا على قيد الحياة من المغول بعد المعركة، فقد تمكنوا من الفرار إلى بلاد فارس، ولدى وصولهم إلى هناك ولقائهم بهولاکو، أخبروه بتفاصيل الوقائع الحربية وبالهزيمة، وهنا زجر هولاکو، وزأر مثل الأسد، وأعلن أنه سيذهب للانتقام لدم جنوده.

٦٧ — حملة غنغرا

واستدعى في العام ذاته هيتوم، ملك الأرمن، وحداته المقاتلة، وذلك بهدف الإقلاع بحملة جديدة، فزحف عبر ممر كان بين كبدوكية وقونية، وكان هدفه الالتقاء بجيش شعب الرماة (المغول) في مقاطعة غلاطية، عند مدينة غنغرا Gangra ، وهي مدينة مجاورة لسмирنا، ولولايات لاسكاريس، وكان التتار قد وجهوا الإنذار إلى لاسكاريس، وطلبوا منه اللحاق بهم، وكان الملك عندما تحرك بالاتجاه المذكور تحرك خائفاً، ومع ذلك لم يتوقف عن المسير، هذا وكانت الوحدات التي حشدتها شعب الرماة قليلة، ولم يكن بمقدورها الصمود طويلاً، ويبدو أن التتار قد علموا بحجم القوات التي كانت مرافقة للملك هيتوم، ولهذا قرروا الانتشار في الأحرار والمناطق الوعرة، وذلك دون تحقيق فائدة تذكر، وكان هناك أمير من أصل إغريقي ضمن وحدات الملك اسمه باسيل كيراوينيك Kerawnc، وقد توفي في طريق العودة. وإثر وفاته نقل جثمانه إلى كليكية، ودفن قرب أجداده.

٦٨ — وفاة كوستاندين والد الملك هيتوم

في عام ٧١٠ (١٥ كانون الثاني ١٢٦١ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٢) زوج الملك الأرمني هيتوم ابنته ريتا إلى ابن صاحب سرونديكار Sar-vandikar في العاصمة سيس، وفي السنة نفسها التحق حاكم سرونديكار، الذي كان مقاتلاً ممتازاً، بالمسيح، بعد قيامه بحملة مقدسة، وكان ذلك في شهر كانون الأول، وقد خلف ثلاثة أطفال هم كوستاندين، وسمباط، وأوشين.

وفي العام ٧١٢ (١٥ كانون الثاني ١٢٦٣ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٤) خيم الحزن الكبير على كليكية، وكان الناس جميعاً يتحدثون بلغة روحية واحدة عن حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد، وكان هذا

الاستقرار قد ارتبط عملياً بوجود أبو الملك، أي كوستاندين، الذي توفي يوم الأحد ٢٤ شباط، من العام نفسه بعد عمر مليء بالأعمال المقدسة، وكان هذا الرجل يعد الأب الكبير لكليكية، وبفضل نصائحه ظلت ذكراه في أذهان الناس، وظل في مكانة عليّة من التقدير لسنوات عديدة بعد وفاته، وتذكر الكليكيون ذلك كله، عندما رحل النبلاء والأشراف أسرى إلى مصر، فاقدين لثرواتهم كلها، فقد قضى الرب بضياعها وبأن تحرق أرض الرب مع جميع الحقول والقرى على أيدي الأمم الإسماعيلية (من المسلمين).

٦٩ — النجاح الأول للتركمان في قرمان

خرج قبل وفاة كوستاندين، والد الملك هيتوم، رجل بدوي من المسلمين اسمه قرمان، وقد انضم إليه عدد كبير جداً من بني قومه، ثم جرت بيعته سلطاناً، ولقد حاول أن يعزز قوته حتى يصبح مثل ركن الدين، سلطان الروم، وذلك بالنظر لخوفه منه، وقد تمكن من فرض سيطرته على كثير من البقاع الحصينة، وأنزل أضراراً جسيمة بأرجاء منطقة ايزورا Isaura (حاضرة ايزوريا)، وبمنطقة سلوقية، حيث قام بأسر الناس، ومزق وحدات الحراسة التي كان الملك هيتوم قد مركزها في المنطقة، كما أنه قتل هلكم، وهو رجل صاحب مكانة عالية، وكان من أصل إغريقي، كنا قد أشرنا إليه من قبل.

٧٠ — محاصرة القائد سمباط في مانياون

بدأ قرمان يظهر نواياه السيئة ضد سمباط أخو الملك الأرمني هيتوم، وفي الحقيقة تمكن قرمان من الاستبداد بالمنطقة، واستطاع بالمقابل سمباط هو الآخر التحرك بفضل هداياه التي وزعها، وبذلك تمكن من انتزاع قلعة حصينة من المسلمين اسمها مانياون Maniawn، وكانت هذه القلعة بالأصل ملكاً للمسيحيين، وقد امتلكها سمباط من قبل

واحتفظ بها لمدة ثلاث سنوات، وهذا وكان قرمان المتجبر قد قام بمهاجمة هذه القلعة بكل عنف، وزاد المخاطر ضد سمباط بأن تولى حصاره فيها، وكما ذكرنا استطاع سمباط بفضل ما أنفقه من ذهب وفضة البقاء بعض الوقت سيداً للقلعة، لكن قرمان لم يوقف هجومه العنيف، وتابع محاصرة القلعة لمدة تسعة أشهر، ثم اقتحمها بكل عنف واستولى عليها، وإثر ذلك شمخ قرمان بأنفه وتكبر كثيراً، وطفق يظهر بكلامه العجرفة والغرور، إلى درجة أنه صار يبعث بأوامره إلى الملك هيتوم وقال له في إحدى المراسلات «لئن كنت لا تريد الآن الانضمام إليّ والالتحاق بي، لترجع أمام قدمي، انتظر قليلاً حتى تهب رياح الخريف على بلدك خوفاً من وصولي، ووقتها لن يصيبني الوهن أو الضعف»، وما أن بلغ الملك الأرمني هيتوم هذا الكلام حتى بادر إلى والده كوستاندين وأبلغه بالأمر.

٧١ — انتصار جيش النجدة

وقال كوستاندين، البطريك الجديد للملك: «لا تأبه كثيراً بأوامر هذا الرجل، وإذا ما أخذنا بعين التقدير انتصاراته في ايزورا، وقواته التي تزداد وتتضاعف فإنني أخشى أن نشهد صلاح الدين الثاني، لذلك يتوجب علينا عدم انتظار ما سمعناه منه وما توعدنا به، وأقول علينا أن نزحف ضده بكل قوة، والرب سوف يضعه بين أيدينا، ويمكننا منه».

وتشجع الملك، وذهب إلى طرسوس، وهناك قام بحشد قواته، وقد جمع كل ما يمكنه جمعه، ثم توجه إلى سلوقية، حيث ضم إلى قواته وحدات أخرى من الفرسان والرجالة، وحملة الأثقال والعتاد، وكان على هؤلاء وموكل إليهم حمل ألف كُر من القمح للتوزيع في داخل القلعة.

وعندما وصل الجيش المسيحي والملك إلى تخوم القلعة، قرر الكفار

مغادرتها، وانسحبوا منها، ولدى وصول الملك إلى القلعة مع قواته لم يجد الكافر قرمان، فأمر بتوزيع القمح داخل القلعة، وبتغيير الملامح الخارجية للقلعة بالطلاء.

٧٢ — وفاة قرمان

وإثر هذا عادت القوات إلى بلادها عبر طريق مغاير، دون أي قلق، غير أن الكافر قرمان، كان قد تخفى في مكان قريب، في غابة كثيفة، بمحاذاة طرق صعبة وضيقة، وعالية في الجبال، فهناك اتخذ قرمان موقعه المرتفع وكمن، وعندما وصلت القوات المسيحية إلى ذلك المكان صرخ الكفار بأعلى أصواتهم، فوجهت إليهم القوات المسيحية سهامها، وأصابت معظمهم بجراح بالغة، ووصلت أصوات صراخهم إلى مسامع الملك، وهكذا تقدم الرجال الأكفاء من المسيحيين وانقضوا على الكفار، فبعثروهم في ميدان المعركة، وتخلّى هؤلاء عن مواقعهم ولجأوا إلى الفرار، وتمكن بعض المسيحيين من إصابة قرمان برمية سهم وقد انسحب هذا مجللاً بالعار، ومات بعد أيام الكافر قرمان متأثراً بجراحه، وكان أخوه المدعو بونسوز Bunsuz وصهره قد قتلوا في ميدان المعركة، وكان من بين رجال الملك الذين قتلوا الوكيل كوستاندين، حاكم سوماي Somay ، والأمير غريغور، وصاحب مازوت اكساك Mazot Xac الذي بتر إصبعه بضربة سيف، ومع هذا على العموم كان عدد القتلى في صفوف المسيحيين قليلاً.

٧٣ — إنجازات سمباط الشاب

كان سمباط الشاب المنحدر من أصل إغريقي، أختاً لكل من باكوران Bakuran وكوستاندين، وعندما كان ما يزال صبيّاً تبناه والد الملك هيتوم، فقد شوهد هذا الشاب وهو يندفع مع الشجعان الآخرين، ويرمي الكفار أرضاً بلا حياة، وكان الملك مع آخرين شاهدوا هذا

المشهد، فقرر الملك مكافأة الشاب المندفع، وأرسله في مهام لدى كوستاندين والد الملك، وكان كوستاندين هذا قد تعرف إلى مواصفات الشاب، وعلم بها قبل أن يصل إليه، فاحتفى به كثيراً، وأغرقه بالمودعة، وأحاطه بأجواء سعيدة، ثم أعاده إلى أمه وإلى أخوته محملاً بالهدايا الثمينة، وكان الملك قد رجع إلى بلاده وأراضيه في غاية السعادة والفرح، ودون أية متاعب وذلك بعدما أذل الأعداء من الكفار.

٧٤ — حج هيتوم الأول إلى أنطاكية

في العام ٧١٢ (١٥ كانون الثاني ١٢٦٣ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٤) قصد الملك هيتوم ملك الأرمن أنطاكية بزيارة ودية لمشاهدة هذه المدينة، ورافقه في رحلته الحكيم تير — يعقوب رئيس أساقفة عين زربة، وذلك بالإضافة إلى عدد من القساوسة والرهبان، وقد حمل معه الكثير من الأشياء الثمينة مثل الذهب والفضة مما اكتنزه أبوه كوستاندين، وذلك بهدف توزيعها على الفقراء، ومنح الهبات إلى البيوتات الدينية، وقد تجول في المدينة، وزار كل من كنيسة القديس بطرس، ثم القديس بولص، كما زار الدير المقدس في كاييك Capik حيث تم قبوله، مثل أبيه، عضواً في طائفة هذا الدير، وهنا تدخل بأمر الدير شخصياً، ونظم بعض الأمور الخاصة بأخوانه، وخصهم بالهدايا، وبأعطيات تقرر أن يحصلوا عليها سنوياً من بلاده، وبعدها أمضى وقتاً طويلاً في أنطاكية عاد أدراجه إلى كليكية.

٧٥ — وساطة مغولية بين هيتوم الأول وسلطان الروم

وفي العام ذاته، في شهر حزيران، توجه الملك هيتوم إلى الشرق، إلى الخان هولوكو، وذلك بسبب الأضرار التي كان سكان كبدوكيا، ينزلونها بسكان كليكية، الذين يعيشون في الجبال والمرتفعات، ونظراً للمودة الكبيرة التي كان هولوكو يكنها للملك، أرسل معه عدداً من القضاة

المغول المشهود لهم بالعدل، وقد رافق هؤلاء الملك حتى ايرغلي، إلى حيث وصل سلطان الروم، وقد أقاما هناك بضعة أيام نتج عنها عهد وميثاق صداقة لكي يعم السلام، وهكذا تحول الملك والسلطان، وصارا بمثابة أب وابن، ثم عاد كل منهما إلى بلده.

وفي العام ذاته كانت الكونتيسة كيراماريا، أخت الملك هيتوم في يافا، قد قصدت السفر إلى أبيها كوستاندين، بسبب حزنها، ذلك أن ساعة منيتها كانت قد دنت، وبالفعل ماتت في حصن لامبرون، ودفنت في الدير المقدس في سكويرا Skewra، وقد خلفت ولدين ذكرين وثلاث بنات.

٧٦ — حملة الملك هيتوم الأول على شمال سورية

في عام ٧١٣ (١٥ كانون الثاني ١٢٦٤ — ١٣ كانون الثاني ١٢٦٥) حشد الملك هيتوم قواته مع أعداد كبيرة من الرجال، وقام بتنظيم حملة ضد منطقة حلب، واستهدف أبراج معرة مصرين، وسرمين، والفوعة، وتمكن فقط من أخذ عدد ضئيل من الأسرى وقليل من الغنائم، وقد تورط هنا في مأزق كبير، استطاع أخيراً أن يتخلص منه، حيث كان قد اختار بعضاً من حرسه الخاص من عبيده، واصطحب واحداً من أمرائه هو كوستاندين أبلها سنانك، وانفصل عن جيشه، ثم تسلل مع مرافقيه إلى داخل المدينة، وسار في شوارعها متنكراً، دون أية مظاهر ملكية، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام عشرين من المسلمين مجهزين بالسلاح، وكانوا على نية الدخول إلى برج مرتفع في وسط المدينة، من أجل إنقاذ الأسرى الذين جرى حشدهم هناك، وتخرج موقف الملك عندما وجد نفسه في مواجهة هذه المجموعة، لكن لحسن حظه لم يتعرف المسلمون على هويته، ومع ذلك رفع أحدهم سيفه وهوى به على الملك، فتدخل الحارس جوسلين، وصرف الضربة نحو جسمه شخصياً، وحاول الرجل مرة ثانية ضرب الملك، فتصدى له الأمير كوستاندين،

وحماه من الخطر، ثم أزاح الملك من المكان الخطر، وتقدم هو للمواجهة، وهنا بادر المسلمون بالانسحاب وهم يركضون نحو البرج، وبذلك تمكن الملك من النجاة ومن الخلاص من ورطته دون أن يصاب بأذى، ثم عاد أدراجه نحو بلاده، محملاً بالأسلاب وبالغنائم، ومسوراً بشكل عام.

واستنفر في السنة نفسها الملك هيتوم قواته، وزحف ضد عينتاب للاستيلاء عليها، غير أنه لم يستطع إلحاق الضرر بالمسلمين، وعاد إلى بلاده وبعد مضي وقت قصير، أي بعد انقضاء الشتاء، قرر الملك هيتوم مجدداً الزحف ضد عين تاب للاستيلاء عليها، غير أنه عندما وصل إلى برج الرصاص اضطر إلى التوقف، ذلك أن الشمس حجبتها الشمس الداكنة، وظلت محجوبة لمدة خمسة أيام، وكذلك بسبب الرياح العاتية والشديدة، ونظراً لغزارة الأمطار، فقد كان من غير الممكن الخروج من الخيام، وقد لوحظ أن الفرسان والرجالة كانوا يرتجفون من شدة البرد، ويعانون من رداءة المناخ، ونتيجة لهذا تقرر الانسحاب، لكن على تعبئة خشية مواجهة أي طارئ، وكان هناك سيرجندي فرنجي اسمه مارتن، كان من رجال الملك وأتباعه، وقد خاطب الملك بصراحة، وكذلك توجه بالخطاب إلى القادة الذين اجتمعوا للتشاور حول الأمر، وكان بعضهم يتحدث عن الرجوع والانسحاب، وبعضهم الآخر يعارض ذلك، فقال هذا الرجل مخاطباً الحضور: «أيها الملك، أيها الأمراء، أقيموا هذه الليلة خارج خيامكم ثم تناقشوا بعد هذا حول الذي ينبغي أن تقرروه، بالنسبة للبقاء، وبالنسبة للعودة».

واستنفر الملك هيتوم في العام ذاته قواته، وحشدتها للزحف مرة أخرى ضد حلب للحصول على أسرى ورهائن وأسلاب وغنائم، لكن الشتاء حال مرة أخرى دون تنفيذ مشروعه.

٧٧ — حملة مغولية — أرمنية لم تنجز

في عام ٧١٣ (١٥ كانون الثاني ١٢٦٤ — ١٣ كانون الثاني ١٢٦٥) بعث الخان هولانكو واحداً من قادته على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ضد منطقة البيرة الحصينة على الفرات، وكانت في أيدي المسلمين، وكان هذا القائد من قواد الألف حسب المراتب في الجيش المغولي، واسمه دوربا Durba ، وقام هذا القائد بطم خنادق المدينة، وألحق بها أضراراً فادحة، ودمر الحصن وجعل عاليه سافله، ثم بعث إلى الملك هيتوم يطلب منه الالتحاق به، واستجاب الملك وقام بحشد أتباعه وأهل بيته في قلعة تل حمدون، وكانت هذه القلعة هي التي اعتاد الملك على إقامة الحفلات فيها، وخلال أيام قليلة كان الملك قد أعد قواته وبات جاهزاً للالتحاق بالقائد دوربا، ولدى وصوله إلى مكان يدعى بامبكجور Bambkjur أرسل بهائتي فارس من قواته إلى دوربا، تمهيداً لحضوره هو شخصياً على رأس جيشه، وفي تلك الأثناء وصلت إلى الملك وإلى ابنه الأكبر ليون أخبار أفادت أن مولوداً ذكراً، قد ولد لليون في المصيصة في شهر كانون الثاني، وعندما وصلت هذه الأخبار الهامة، من ذا الذي يمكنه أن يصف الفرحة والبهجة التي عمت أوساط الملك هيتوم وابنه وبين أوساط الأعيان والشعب؟ وبالمناسبة نال عدد كبير من الجند ومن المرافقين ومن أفراد الأسرة المالكة ألقاباً راقية وشرفية وفروسية.

وعلم الملك بعد ذلك بأن دوربا قد انسحب من البيرة، لأن سلطان مصر قد حشد قواته لمواجهة، فعاد الملك إلى بلاده في جو بهيج.

٧٨ — حفل تعميد وترقية للأمراء

وجرى في هذا العام، وتحديدًا في يوم ميلاد سيدنا يسوع المسيح، أي في يوم الأحد، تعميد بارون الأرمن ابن ليون، وتسميته في العاصمة

سيس في كاتدرائية سانتا صوفيا، وذلك من قبل القديس البطريرك كوستاندين، وقد أطلق عليه اسم كوستادين، وبسبب هذا الحدث السعيد، تم تقليد ولدي سمباط شارة الفروسية، وشملت الترقية الأرمنيين هيتوم وباسيل، الملقب تثار، كما كان هناك غيرهما، وجعلوا في الوقت ذاته من هذه المناسبة مناسبة احتفالات عديدة.

٧٩ — أصداء حملة مصرية على كليكية

وكان في العام ذاته قد قام سلطان مصر بيبرس البندقاري، وبرفقته القائد سم الموت (عز الدين أوغان) مع عدد من القادة، بحشد جيشه، واتجه زاحفاً نحو بلاد الكليكيين لإذلالها ونهبها، ومواجهة لذلك أعلن هيتوم ملك الأرمن الاستنفار العام هو وأخوته، وفوض إلى سمباط حكم الأماكن الحصينة في بابراون Paperawn وسمباطي كلي Smbaty Klay ، وأستاروس Astaros ، وفاركسيني Farxni ، وباباتول Papatul ، وسيك Sik ، وموراندين Murandin ، وكلف أوشين بإمرة حصون كيوريكوس Kiwrkos ، وميتزاون Mitizawn ، ومانياون Manmawn، وكنج Kanc ، وبعض القلاع الأخرى الأدنى أهمية، وكذلك على بقية الأمراء والشعب، ثم زحف بقواته حتى وصل إلى مكان يدعى باب أنطاكية، ثم تمركز هناك، واتخذ مواقعاً لقواته، وبقي ينتظر الكافر سلطان مصر، ووصل هذا السلطان هو الآخر إلى حدود أنطاكية ومعه جيشه ورابط على ضفاف النهر الأسود، وبقي هناك لأيام بث خلالها عيونهم مع عدد من الجواسيس لجمع المعلومات سراً عن أوضاع الملك هيتوم وعن أوضاع كليكية، وفوجيء هؤلاء الجواسيس لدى دخولهم إلى بلاد الملك بالحشود الضخمة التي اجتمعت تنتظر المواجهة مع السلطان، ولما عاد الجواسيس إلى معسكر السلطان، وأبلغوه بالذي شاهدوه خيم عليه الخوف، وقرر الانسحاب والعودة إلى مصر، وهكذا استراحت قوات الملك الأرمني، وعادت هي الأخرى إلى

مواقعها في الحصون والقرى حامدين للرب.

وفي ٢٦ كانون الاول من العام نفسه توفي أوشين، أخو الملك هيتوم وصاحب كيوريكوس، وحدثت وفاته في مدينة طرسوس، ثم نقل جثمانه الى سيس حيث دفن الى جوار المدفن الذي كان مخصصاً لأبيه.

٨٠- هيتوم الأول يرفض التنازل عن بعض المواقع الحدودية:

في العام ٧١٥ (١٤ كانون الثاني ١١٦٦ - ١٣ كانون الثاني ١٢٦٧) أعاد سلطان مصر حشد قواته من جديد، وزحف باتجاه حصون الأخوة الرهبان الذين يرتدون معاطف تحمل شارة الصليب (من الداوية والاستبارية)، وبعد ما استولى على أرسوف ثم صفد مع مناطق أخرى، زحف باتجاه كليكية، وفي طريقه توقف لعدة أيام في دمشق، ومن دمشق بعث سلطان مصر عدة رسل الى الملك هيتوم يعرض عليه رغبته في اقامة سلام معه، وأن يعم السلام في المنطقة بين الطرفين، وكان السلطان يرغب فعلاً في تحقيق السلام، غير أنه ربط ذلك بتسليمه بعض الحصون والقلاع الحدودية، لكن الملك هيتوم لم يقبل هذا المطلب لسببين: أولهما أنه كان يخشى من شعب الرماة (المغول) الذي سيقول قاداته: لقد بات هيتوم تحت سيادة السلطان، لتنازله عن القلاع والحصون التي كان شعب الرماة قد سلمها له من قبل.

وثانيها:

إنه على الرغم من وضوح طلب السلطان وصوابيته بطلبه الحصول بشكل محدد على شيخ الحديد، وقوله: «أعطني هذا الموقع لكي أتخذ منه سوقاً مشتركاً لنا ولكم»، على الرغم من هذا كله رفض الملك الطلب، حتى يتجنب الوقوع تحت سيطرة السلطان، إذ كيف كان له وهو الملك المنتصر، والمعروف بهذا اللقب أن يخضع لسلطان كان عبداً ابن عبد، ولهذا حشد قواته وتمسك بالرفض، وذلك على الرغم من خوفه

وخشيته، ولهذا أرسل الملك في مناسبات كثيرة إلى سلطان مصر شخصيات بارزة محملة بالهدايا الثمينة بهدف كسب ود السلطان، لكن السلطان رفض قبول أي شيء، وظل مصرأ على مطالبته بالحصون والقلاع الحدودية، التي أشرنا إليها من قبل.

٨١ - كارثة ماري

وتوجه السلطان بعد ذلك بجيشه الى حلب، وهناك عهد بالقيادة الى واحد من كبار رجاله هو سم الموت، وكان معه الرجل الثاني (قلاوون) الألفي وذلك بالاضافة الى سلطان حلب، ولقد بعث بهؤلاء القادة الثلاثة لمواجهة قوات الملك هيتوم في كليكية، ومكث السلطان في الوقت نفسه مرابطاً حيث هو.

وانطلق القادة الثلاثة لتنفيذ مهمتهم، وقد وصلوا الى منطقة اسمها نيقوبولس في سفح الجبل الاسود، وهناك نصبوا مخيمهم، أما قوات الملك هيتوم فقد انقسمت إلى ثلاثة أقسام: وكان القسم الأول بقيادة الملك، الذي توجه ليطلب من شعب الرماة النجدة والدعم، وتمركز القسم الثاني في منطقة اسمها دورن Durn ، وقد توجب على القسم الثالث التحرك للتصدي للمسلمين، وقد وصل هذا القسم في يوم الاثنين ٢٨ آب إلى المكان المسمى ماري Mari ، وعسكر هناك انتظاراً لوصول المسلمين.

وفي فجر يوم الثلاثاء اقتحم المسلمون مخيم المسيحيين الذين تصدوا في البداية للهجوم، لكن سرعان ما تراجع قوات المسيحيين وفرت دون مقاومة تذكر أو قتال، تاركين في ساحة الوغى ولدي الملك، وهما: ليون، بارون الأرمن مع أخيه طوروس، وكانا قد انسحبا من الجيش المنهزم وانفصلا عنه، ثم عاودا مجابهة المسلمين، فكان أن قتل طوروس في هذه الجولة من القتال، وحاصر المسلمون ليون بن هيتوم، بارون

الارمن، وأسروه مع باسيل بن سمباط الملقب بتتار، وذلك بالاضافة الى رجل اسمه سيلارت Cilart ، وآخر اسمه أتوم Atom.

٨٢- أعمال النهب المصرية لكليكية

وبعد ما تم أسرهم، جرى نقلهم إلى سيس، حيث أودعوا السجن في أحد المعابد، وبعد مضي عدة أيام استباح المسلمون المدينة، ونهبوها وسلبوها وخربوها، وأضرمو النيران في كل مرفق ومكان فيها، وعمت الحرائق وانتشرت في أرجاء المدينة، وكان هناك عدد لا يمكن تعداده من القتلى والأسرى.

وبعد هذا هاجم المسلمون المناطق الحصينة بحثاً عن المدافعين المتبقين، ورفض هؤلاء الاستسلام، وعندما أدرك المسلمون أن الحاق الضرر بالحصن الأعلى بات مستحيلاً، توجهوا نحو السهول والمناطق الجبلية المشجرة ، فأحرقوها بعدما نهبوا موجوداتها، وجرى تجميع عدد كبير من الناس في مكان اسمه كيا Kema ، وفي مكان آخر اسمه بكنكار Beknkar ، وكان هؤلاء من النساء والأطفال، وقد تم الهجوم عليهم على مرأى الجميع من بني جنسهم، وقد حاول هؤلاء المقاومة، وذلك على الرغم من عجزهم، لكن المسلمون أشهروا سيوفهم، وشرعوا على الفور في تقتيلهم، وكان عدد القتلى كبيراً جداً، ويقال بأنه بلغ عشرين ألفاً في هذا المكان، وبعد هذا حمل المسلمون الأسرى الأحياء معهم، وانطلقوا عائدين عبر طريق غير الذي دخلوا منه، وراحوا إلى باب أنطاكية، حاملين معهم كل ما وقع في أيديهم، وقد باعوا شطراً من منهباتهم وغنائمهم في أنطاكية.

٨٣- اعتقال الأمراء الأسرى في مصر

أخذ المسلمون، إثر ذلك، طريق العودة إلى مصر، حاملين معهم البارون ليون لتقديمه هدية الى السلطان، ولدى مشاهدة السلطان بارون